الفرقة والتجزئة

إحدى معوقات النهوض في العالم الإسلامي والعربي*

تقديم

الحمد لله الذي وحَّد بين قلوب عباده المؤمنين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء وخاتم الرسل الكرام أجمعين وعلى آله وصحبه وسلم:

أما بعد: فإن العالم الإسلامي والعربي يعاني من تخلف عن مواكبة العالم المعاصر في النهضة والتقدم وبناء حياة قوية متطورة، إذا قورن ذلك بما نشاهده في دول الغرب والشرق المعاصرة، والتي تتجه اتجاهاً قوياً وحيوياً نحو تحقيق متطلبات النهضة منذ القرن السادس عشر، ثم التفوق في القرن التاسع عشر والعشرين، والوصول إلى القمة في النصف الثاني من القرن العشرين وإلى وقتنا الحاضر، وإحساساً منهم بضرورات التفوق العلمي النظري والتطبيقي، وأداته ما يعرف بالتقنية أو التكنولوجية.

---

* المؤتمر الدولي في عمَّان في مظّلة عنوان: «نحو مشروع نهضوي إسلامي».

وكان جديراً بنا أن نكون سبَّاقين إلى هذا التطور في جميع مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية والعسكرية والإعلامية.

وحيث إننا ما زلنا بعيدين عن التقدم والنهضة في الأصول الكبرى، فينبغي معرفة أسباب التخلف والنهضة من خلال أسس التشريع الإسلامي المقررة في أصول القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، ورصد كل المعوقات الداخلية والخارجية لمعرفة الداء ووصف الدواء، ومن أهمها ظاهرة الفرقة والتجزئة الفعلية المريرة والخطيرة، وذلك من خلال المحاور الآتية:

١- الفرقة والتجزئة العقائدية (العقدية).

٢- الفرقة والتجزئة القطرية.

٣- الفرقة والتجزئة الاثنية والعرقية.

المحور الأول - الفرقة والتجزئة العقائدية (العقدية)

العقيدة الإسلامية أو قواعد الإيمان (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره) هي الأساس الجامع بين شعوب الأمة الإسلامية وأغلب البلاد العربية، وقد ركَّز القرآن الكريم والسنة والسيرة النبوية على تصحيح العقيدة الإيمانية، لأنها منطلق جميع القيم الدينية والقيم الخيرة، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات أو القيادات، ثم هي طريق بناء الأمة بناءً سليماً، والمثال الواضح هو أن العرب في جاهليتهم كانت تهيمن عليهم مفرزات القبلية والعشائرية، فتشن الحروب الطاحنة فيما بينهم، وقد تستمر أربعين سنة كحرب داحس والغبراء، فشاعت الفرقة والتجزئة في ربوعهم، وكانت دولتا الفرس والروم تهيمن عليهم، المناذرة في العراق يوالون الفرس، والغساسنة في

الشام يوالون الروم، لأنهم كانوا يعيشون بحسب أهوائهم وشهواتهم، ولا يعرفون علماً يجمعهم في السياسة والاقتصاد والاجتماع، لأنهم أمة أمية لا يحسبون ولا يكتبون باستثناء أفراد معدودين في كل قبيلة أو عشيرة، وعقيدتهم تتمثل في عبادة الأصنام والأوثان، وهي وكر الخرافات والأباطيل، يمارسون تقاليد وعادات فيها غاية السخف والانحطاط، والعقول في الغالب الأعم بدائية ساذجة، والمعارف موروثة من غير ميزان ولا هدف أو غاية موضوعية أو مقصد شريف إلا ما ندر.

وقد وصفهم القرآن الكريم بالأُميين في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٢].

وأحكامهم باهتة وفوضوية وجامدة، تعتمد على تقليد الآباء والأسلاف من غير عقل، ولا وعي، مرددين ما أخبر عنه القرآن في آيات كثيرة، منها: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢٣]، ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢٢]، ومنها الغمز واللمز بهم في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٠].

وهم في نظام الحكم تائهون ضائعون، كما قال الله عز وجل: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٠].

ثم كان الإسلام العظيم بنظامه الإلهي وإصلاحه العقدي والحضاري قد حوَّل طاقات الأمة العربية، ووجّهها الوجهة الصحيحة والرفيعة، حتى صاروا في مقدمة الأمم علماً وعملاً، وممارسة وحضارة، وتفوقاً سامياً في السياسة والحكم والنظام والأخلاق والمعاملات والاقتصاد والاجتماع بل والإعلام، فحققوا المعجزات وانتصروا على أعدائهم في فترة قصيرة

لا تزيد عن ربع قرن، حتى استحقوا الوصف الإلهي المتميز في قول الله سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٠] والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نظام حضاري رفيع، والإيمان بالله قاعدة وطيدة تنطلق منها كل معاني الخير والتقدم والرفعة والسمو، وبناء الوحدة والوفاق، والتخلص من آفات الفرقة والتمزق والشتات.

جمع الله تعالى الأمة العربية ثم بقيت الأمة الإسلامية تحت مظلة القرآن المجيد في قول الله عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٣].

والاعتصام بحبل الله التمسك بالقرآن وبالإسلام، وترك التفرق الجاهلي، وحرب بعضهم بعضاً، ونبذ الاختلاف في الدين، وحلّ محل كل ذلك نعمة واحدة، وعمل جدي شامل، ومحبة بعد تباغض، وتفاهم بعد تخاصم، وتعاون بعد تنافر، ووحدة أساسها عبادة الله تعالى وطاعته، وهي مصدر عزة الإنسان وسموه ورفعته، والمساواة بين عباد الله جميعاً دون تعصب جاهلي، ولا تميز طبقي، ولا ترفع أو زعامة قبلية.

والفضل كله يرجع إلى إلهام الله تعالى وإلى الانصهار في بوتقة الإسلام الحضارية، والتزام العقيدة الجامعة المانعة، وتآلف القلوب، فقال تعالى مذكراً بهذه النعمة العظيمة: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٣].

وأصبح شعار الأمة التعاون والإخاء والتفاهم بالحسنى، كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/ ٧١] أي إن الإيمان الصلب هو العاصم من الفرقة.

وظلّت ظاهرة الإيمان القوية هذه هي السائدة والجامعة للأمة في القرون الثلاثة الأولى: عصر الصحابة والتّابعين وتابعي التّابعين بشهادة النَّبيّ ﷺ: «إنّ خيركم قرني، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ يكون قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون»[1] وهذه القرون الثلاثة دامت زهاء مئة عام.

ظاهرة التَّحوُّل

ثم غلبت المصالح الدنيوية، وتفرَّقت الأمة شيعاً وأحزاباً، بسبب الحرص على الحكم، وتسلل شبهات وأفكار غريبة عن الوسط الإسلامي النّقي، ووجود نظريّات فلسفيّة أعجميّة من فلسفة اليونان الإلحاديّة، فهزَّت وحدة الأمة والعقيدة.

مع أن الله سبحانه وتعالى حذَّر من هذه الفرقة الخطيرة، وظلَّ التَّذكير القرآني مطالباً بوحدة الاعتقاد والدِّين في آيات منها: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٢]، و﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٥٢].

وظهر على الرغم من ذلك ظاهرة تعدد الآلهة كالمجوسيّة والثّنوية القائلين بإلهين اثنين: الظلمة والنّور، وتأليه بعض البشر كعيسى عليه السلام، وتأليه الملائكة والكواكب كالصّابئة، وتأليه المادّة كما هو ظاهر في الفكر اليهودي، والفرق الضّالَّة من غلاة المذاهب الشيعيّة المتطرِّفة، كالدرزيَّة والإسماعيليَّة المؤلّهة لبعض الزّعماء من الناس، ومثلها تأليه

(١) متَّفق عليه بين البخاري ومسلم عن عمران بن حصين رضي الله عنه (بلوغ المرام وسبل السّلام ٤/ ١٢٦).

الإمام عليّ، ونحوها من الطوائف المارقة أو الملحدة، بالإضافة إلى الشيوعيَّة الملحدة والمنكرة لوجود الله واليوم الآخر، وبعض الفلسفات الأخرى المادية والعابثة بعقيدة الناس، مثل إنكار ظاهرة الوحي، وإعلان لا إله، لا وحي، لا آخرة، لا دين يصحّ... إلى آخر ما هنالك من نظريّات ماديّة كثيرة مدمِّرة للعقيدة وبنية الإيمان، كتناسخ الأرواح والتحلل من مبدأ العرض، وقد تبرّأ الله عز وجل في القرآن المجيد من هؤلاء جميعاً وأمثالهم في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٩].

والحاصل: أن الإيمان الصحيح في مفهوم الحضارة الإسلامية، هو الذي يحمي الأمة من الانقسام والتفرقة، وهو الذي يقوِّم الاعوجاج والانحراف في كل شيء، وهو الذي يصحح مسيرة الحضارة الإسلامية، ويميّز عناصرها الصالحة من عناصرها الرَّديئة، وينفخ فيها الحياة القويّة، ويهبها من ذاتية المجد، ويرعاها صغيرة في بداية النُّموّ، ويراقبها كبيرة ذات ظلال وارفة، ويدفع عنها كلّ عوامل الضعف والشيخوخة والانحطاط، ويحميها من غوائل الهدم والتَّخلُّف والضَّياع، ولا يدعها تتأثَّر بأية حضارة ماديّة بحتة أخرى، وإنّما يوجهها نحو الاستفادة من الإيجابيات، ويقيها من السَّلبيّات[1].

وليس الإيمان مجرّد عاطفة قلبية، وإنما هو قوّة دافعة للعمل البنّاء والنّهضة، والوحدة وتفادي كلّ أشكال الفرقة، والإيمان ملازم لكلمة «الإسلام» والإسلام نظام متكامل في العقيدة والشريعة، ومنهج للأخلاق العليا والتَّمدُّن والاجتماع والتَّقدُّم، والبذل والتَّضحية، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ

(١) نظام الإسلام للباحث: ص ٢٨٥ وما بعدها، ط دار قتيبة بدمشق.

﴿ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٤]، والحياة تعني النَّهضة والتَّعاون والتَّقدُّم.

والإسلام والإيمان حقائق قاطعة ثابتة، ومن أهمِّ أصولهما السِّياسية والحياتيَّة وحدة الأمَّة وتجنُّب كل عوامل التَّصدُّع والتَّفرُّق.

ومن أهمّ أسباب الفرقة العقائديَّة أو العقديَّة عدا التأثُّر بالأهواء وبالمصالح والميول هو الآراء المرتجلة والاجتهادات الزائفة، التي أدّت إلى نشوء الفرق الضَّالّة، سواء المنقرضة أو الباقية، ومن قرأ كتاب «الملل والنّحل» للشهرستاني وأمثاله يذهل حين يجد أنّ أغلب هذه الفرق لها آراء عجيبة تمسّ إما صلب العقيدة، أو النّظام الأخلاقي ومبادئ الفضيلة، أو تبني الأفكار الدخيلة المشبوهة، والآراء الزائغة، مثل النَّماذج التي أوردتها مما يمسّ العقيدة الثّابتة أو الواضحة، أو القطعيّة والتي تخرج الإنسان من عقيدة الإسلام، أي إنّ من أهم أسباب الفرقة في مجال العقيدة التَّأثُّر بآراء جانحة، واجتهادات في أحكام قطعيّة لا تقبل الاجتهاد، لأنّ مجال الاجتهاد هو الظَّنيّات لا القطعيّات.

وطريق التَّخلُّص من مظاهر وأشكال الفرقة العقديّة أو العقائديّة هو تطويقها ومحاصرتها إن كانت باقية كالقاديانيّة والبهائيّة (اللتين أصدر مجمع الفقه الإسلامي الدّولي قرارين بتكفيرهما) وكذا اللاهوريّة[1].

وتنعكس آراء الفرق الضَّالّة على النَّسيج البنيوي الوحدوي، لتباين المنطلقات والآراء وانعكاسها على الأمّة سلباً في قضاياها المختلفة، ولا سيما ما يمسّ العلاقات الخارجيّة مع غير المسلمين، ومنها المذاهب العلمانيّة اللادينيّة كالشيوعيّة والبوذيّة والهندوسيّة التي تجيز نكاح المحارم ونحوها، ممّا يرتبط بتوجّهات آراء أتباعها.

---

(١) القرار بردّة القاديانيّة رقم (٤/ ٤/ ٢) والقرار بردّة اللاهوريّة رقم (٤/ ٤/ ٢) وتكفير البهائيّة رقم (٣٤/ ٩/ ٤).

عيوب الفرقة

الفرقة أخطر العيوب العامّة، فإنها مدمِّرة للأمة والوطن والمجتمع، وتقود إلى التَّخلُّف والتَّأخُّر في جميع ميادين الحياة، لذا أمر الشرع الإسلامي بالوحدة ونهى عن الفرقة، فقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٥]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤/ ١٥٥] أي إن خرق صفّ الجماعة يعرِّض أصحابه إلى دخول جهنَّم، وتدلُّ الآية على أنَّ اتِّباع غير سبيل المؤمنين[١]، أي سبيل الفرقة والضلال حرام، فيكون اتِّباع سبيل التَّجمُّع واجباً.

وأكَّدت السُّنّة النَّبويّة هذا التَّوجُّه، فقال عليه الصلاة والسلام: «يد الله مع الجماعة - أو على الجماعة - ومن شذَّ شذَّ في النّار»[٢]، «من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»[٣]، «من فارق الجماعة شبراً فمات، إلا مات ميتةً جاهلية»[٤]، «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح»[٥]، «الجماعة رحمة، والفرقة عذاب»[٦]، وغيرها من الأحاديث التي تبلغ مرتبة التَّواتر المعنوي.

---

(١) أي سبيل الجماعة والوفاق.

(٢) أخرجه الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البزار والطّبراني في الأوسط، لكن فيه ضعيف، وأخرجه أحمد ورجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه أبو داوود والحاكم.

(٤) أخرجه الترمذي.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في كتاب السّنّة عن ابن مسعود موقوفاً.

(٦) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، والقضاعي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، لكنّه ضعيف.

وأصرح من هذا حديث: «دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم؛ الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، أما إنّي لا أقول: تحلق الشّعر، ولكن تحلق الدِّين»[١]، والفرقة والحقد من أهم أسباب البغضاء.

فما أسوأ الفرقة وبخاصّة تفرقة المسلمين في عصرنا الحاضر، فهي من أهم أسباب التَّخلُّف، والضَّياع والمذلَّة، والهوان، وجمود الرقي.

والفرقة المذمومة هي الفرقة الناجمة عن عوامل الهوى والعناد والتَّباعد، دون حجّة مقبولة ولا دليل معقول، ولا يعني هذا عدم التزام الرأي الآخر، ولا عدم قبول موقف المعارضة، ولا الاختلاف في الرأي، فهذا شيء محمود ومقبول، لأن ذلك مبني على رأي له حظ من النظر، واجتهاد قائم على الدليل، لكنه أضعف من أدلّة الجماعة والأكثريّة التي تلاحظ تحقيق المصلحة العامّة بنحو سديد وأصيل، وبحجّة قويّة غير واهية.

حديث افتراق الأمة في مجال العقائد

ذكر المحدّثون حديثاً خطيراً في بيان افتراق الأمّة، بروايات منها ما أخرجوه[٢] عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ، فقال: «ألا إنَّ من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين مِلّة، وإنّ هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النّار، وواحدة في الجنّة، وهي الجماعة» وفي رواية عن عبد الله بن عمرو: «قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي»[٣]، قال

(١) أخرجه البزّار بإسناد جيد والبيهقي وغيرهما.

(٢) أخرجه أبو داود وأحمد في المسند، والدّارمي، والآجرّي في الشّريعة، والحاكم والطّبراني واللالكائي وابن أبي عاصم.

(٣) وأخرجه التّرمذي عن ابن عمر رضي الله عنه.

جماعة كالتّرمذي والبيهقي والسّيوطي عن الرّواية الأولى: حديث حسن صحيح، وقال التّرمذي عن الرواية الثانية: هذا حديث مفسّر غريب، فهي فرقة الجماعة.

وفي رواية العقيلي عن أنس بن مالك: «كلّهم في الجنّة إلا فرقة واحدة، قالوا: يا رسول الله من هم؟ قال: الزَّنادقة وهم القدريّة» لكنه حديث ضعيف.

والواقع أنّ هذا الحديث بهذه الرواية خطير، يجعل كل الفرق في النّار إلا فرقة واحدة، وذكر عبد القاهر البغدادي أنّ المراد بالفرق الضّالة أهل الأهواء، وليس الفقهاء الذين اختلفوا في فروع الفقه، مع اتّفاقهم على أصول الدين. وهذا يجعلنا نيأس من توحيد الأمة الإسلامية والتقريب بينهما، ثم أين هذه الفرق؟ مما يشكك في الحديث، قال السّيوطي عن حديث أنس: «وهذا اضطراب شديد سنداً ومتناً». واضطراب الحديث يوجب ضعفه.

وبما أن هذا الحديث في الرواية الأولى حسن أو صحيح، فيصعب قبوله في عصرنا الحاضر، إلا أن يكون المراد منه مجموعة الفرق المنحرفة غير الموجودة في عصر واحد، وإنما في عصور متباينة أو متلاحقة، فبعض رواياته عن الثلاث والسبعين فرقة: «كلها في الجنّة»، وبعضها: «كلّها في النّار»، والأشهر: «كلّها في النّار إلا ما أنا عليه وأصحابي»[١].

وأسلم الروايات حديث أبي هريرة: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرَّقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفرّقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»[٢].

---

(١) ينظر بحث الدكتور إسماعيل الدّفتار عن هذا الحديث في مؤتمر الدَّوحة عام ٢٠٠٧م.

(٢) أخرجه أصحاب السُّنة الأربعة، وأشار إليه السّيوطي بأنه صحيح.

قال العلامة المناوي في «تفرَّقت أمّتي»: في الأصول الدّينيّة للفروع الفقهية، إذ الأولى هي المخصوصة بالذّم، وأراد بالأمة من تجمعهم دائرة الدعوة من أهل القبلة، ثم قال: أصول الفرق ستة: حروريّة، وقدريّة، وجهميّة، ومرجئة، ورافضة، وجبريّة، وانقسمت كلّ منها إلى اثنتي عشرة فرقة، وصارت اثنتي وسبعين. وقيل غير ذلك[١].

وإذا عملنا بهذه الرواية أصبحنا في مأزق، إلا أن يكون وجود هذه الفرق متتابعاً مع مرور الزمان.

المحور الثاني - الفرقة والتجزئة القطريّة

بدأت الكارثة بتفرقة العالم الإسلامي وتجزئته حينما ألغى مصطفى أتاتورك الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م، التي كانت رمز أو مبنى الوحدة الإسلامية الشاملة.

وتبع ذلك الاستعمار البغيض، حينما اتفقت الدول الغربية في معاهدة سايكس بيكو بعد الحرب العالمية الأولى، على تقطيع أوصال البلاد الإسلامية، وظهور فكرة القومية العربية لتكون بديلاً هزيلاً عن الوحدة الإسلامية، وابتليت أغلب البلاد العربية والإسلامية بالاستعمار الذي ظلَّ كابوساً معيقاً لكل تقدُّم وتطوُّر، وبعد رحيل الاستعمار ظاهرياً وتحقق التَّحرر الوطني، حُكِمَت هذه البلاد بالأفكار والفلسفات والقوانين الغربية التي حلّت محل الشريعة الإسلامية، وتحركت قيادات الدول الغربية بدءاً من بريطانية، وفرنسة، وإيطالية، وهولندة، وغيرها وأمريكة المحالفة للصهيونية العالمية ووليدها المشؤوم «إسرائيل»، في تأجيج الصراعات المذهبية وتحريك النزعات الطائفية القطرية، في لبنان والعراق والباكستان

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلّامة عبد الرؤوف المناوي ٢/ ٢٠.

وأفغانستان وغيرها، من البلاد التي يتعايش فيها أتباع المذاهب السنية والشيعية، وظهرت فكرة القوميّة العربية شعاراً للوحدة الوطنية، وتآمرت دول الغرب على زرع ألغام ومخاطر في دول الخليج، ولا سيما في العقود الثلاثة الماضية بتشويه الفكر الديني وتقوية الأقليات المستوردة كما فعلوا في جنوب شرقي آسية من تنصير في إندونيسية، واستقدام البوذيين وتوطينهم في سنغافورة (إسرائيل العرب) وغيرها، حتى صاروا هم الكثرة الغالبة والقابضة على الحكم، وأصبح المسلمون الأصليون هم القلة، وكذلك في ماليزية وغيرها حيث بلغ البوذيون قرابة ٤٠٪.

والقومية في ديار المسلمين وغيرهم من مخلفات القرن التاسع عشر في الغرب، وقد أدت إلى ظهور القومية الكردية والبربرية ونحوها.

وانتشرت في البلاد العربية وغيرها ظاهرة تعميق التجزئة وتمجيد كل بلد بحاكمها فقط، والنيل أحياناً من القيادات الأخرى، حتى امتلأت وسائل الإعلام بإظهار التقديس لذات الملك أو الرئيس الإقليمي، لتحاول القيادات الأجنبيّة الموجهة لمنع أي تلاقٍ أو تعاون مشترك له قيمته وأهميته، وأصبحت غالبية الدّول العربية تحكم باستبداد سياسي أو أسري أو فئوي أو طائفي، تبعها فقر القيادة الناجحة وفصل الدين عن السِّياسة، تحت مظلة العلمانية، وتصنيف المواطنين إلى فئات ودرجات، تكون فيه الأولوية لجماعة موالية للحكم، وأما المعارضة فليس لها شأن يذكر بأساليب وأنظمة مبرمجة ولو كانوا هم الأكثرية، وكل هذه الأوضاع محاولات وممارسات فعلية جعلت التجزئة القطرية من أهم الأسباب المؤدية إلى الفرقة والتباعد بين الشعوب العربية، فضلاً عن الابتعاد عن الشعوب الإسلامية اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، أفرز الطبقية وسوء أحوال المعايشة[1].

(١) نظام الإسلام للباحث: ص ٤٠٥.

وانقسم العرب أخيراً مع الأسف الشديد فريقين: فريق الموالاة لنظام إسرائيل وحلفاء إسرائيل، وفريق الحفاظ على المصالح الوطنية، كما تبدّى ذلك في مؤتمر القمة العربية في دمشق عام ٢٠٠٨ م، مما أضاع فلسطين، وهدّد بضياع العراق وأفغانستان، وحصار عرب غزّة، وقتل عرب الضفة الغربية.

وكانت المصالح الشخصية لبعض الحكّام في وضعهم الحاضر سبباً في ظهور ظاهرة الإرهاب والعنف المتبادل بين فريقي السنة والشيعة، وبين أتباع السنة أنفسهم من أكراد وغيرهم، واستغلت أمريكة وغيرها هذا النزاع الطائفي فأغروا الأكراد على الانفصال من أربع دول هي (سورية - العراق - تركية - إيران) وتكوين دولة كردية، كما قتل في العراق مئات الآلاف من السنة والشيعة، وهُدِّد أربعة ملايين ونصف في أفغانستان من مجاعة رهيبة كما أعلن في مساء يوم السبت ٢٠٠٨/٨/٣٠، وكذلك الشأن في الصومال مع تدخل الحبشة لقتل المسلمين، وبذر بذور الفتنة الأمريكية الأوربية لإضعاف السودان بين الشمال والجنوب، وبين الغرب والشرق في دارفور، وربما في أقاليم أخرى، والوضع كذلك في اليمن السعيد، ومصر، أما القمع الشديد للمعارضة في تونس فواضح لكل العرب، وإن أسوأ ما يتعرّض له المواطنون في البلاد العربية وجود نزعة التعصب الإقليمي وتطاحن أنصار الطائفية، ففي ذلك تأثيرات خطيرة على مستوى الفرد والجماعة.

المحور الثالث - الفرقة والتجزئة الاثنية والعرقية

هذا المحور أضيق المحاور المؤدّية إلى الفرقة والتَّشتت أو التَّمزق والتَّجزئة بسبب رواسب تاريخية في داخل الوطن الواحد أو الإقليم الواحد إمّا بسبب الاختلاف في الدين بين المسلمين وغيرهم، وإما في

دائرة الإسلام الواحد بين المذاهب المتعددة وهو المراد بالاثنية، أو بين الطوائف المتنازعة والأعراق والأصول المنحدرة من تاريخ قديم.

مع أن اختلاف الدين يجب ألا يكون سبباً للاختلاف في الإسلام لأن سنّة الله تعالى اقتضت وجود اختلاف الأديان، ليظهر الفرق بين الحقّ والباطل، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠/ ٩٩]، وقال تعالى أيضاً: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦].

وأمّا في دائرة الإسلام فيجب أن يكون الاختلاف أشدّ رفضاً وأبعد وجوداً، لأن مظلة الإسلام الأصيل تجمع الفرقاء، وتحقق وحدة الأمة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٢].

ومن الغرابة بمكان أن يتَّهم المسلمون بعضهم بعضاً بالضلال كاتِّهام السَّلفية لغيرهم به، أو بالكفر كاتِّهام قواعد الإرهاب والجهل والسفاهة والمروق لغيرهم به، فتنزلق بعض هذه القواعد لتكفير الآخرين من نساء ورجال، ويستبيحون دماءهم، ويحكمون عليهم بالقتل الشنيع، مع أن الفريقين يؤمنون بأصول الإيمان الستة (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشرّه حلوه ومرّه) ويتفقون في أركان الإسلام الخمسة (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً).

وإن ظاهرة التكفير هذه أشد بلاء وفتكاً وتفريقاً بين المسلمين، وكأنهم أحفاد الخوارج الذين كفّروا كل من عداهم من المسلمين، جماعة الإمام علي الحق، والخليفة معاوية وأتباعه في السياسة والحكم، فاستحلّوا الدماء، وفتكوا بالأعراض، واستباحوا الأموال، وقطعوا

الأوصال بين إخوانهم المؤمنين والمؤمنات، وزعماء هذه الفرق إما متعصِّبون عُمْي البصائر، وإما جهلة، وإما فوضويّون عابثون، ثم عدل كثير من الخوارج عن نحلتهم، وبقي الأقلّون على نزعتهم، وإما التكفيريون الحاليون أو قواعد الإرهاب الحمقى المعاصرة فلم يعودوا لرشدهم بعد، وإذا كانوا صادقين في ادِّعائهم العمل للمسلمين، فلماذا لا يحصرون نشاطهم ومقاومتهم لأعداء الأمة الإسلامية قاطبة سواء الصهاينة في فلسطين، أو الأمريكان وحلفاؤهم الغربيون ومليشيات اليمين المتطرِّف، والمسيحية المتصهينة والساسة الحاقدون على المسلمين؟!..

وكيف يستحلّ الإرهابيون دماء العشرات من النّساء والشيوخ والأطفال المسلمين وربما من أسرة واحدة؟!.

وكذلك بعض مليشيات الشيعة المتطرفين يقتلون المئات من مسلمين أهل السنة على مجرد الهوية أو الاسم دون جريمة ولا ذنب، وكيف يروق لهم هدم ومصادرة كثير من المساجد، وقتل المئات والآلاف ودفنهم في مقابر جماعية؟.

إنها جريمة نكراء من الفريقين في أرض العراق حيث يخدمون المحتلين ويعمّقون جذور الخلافات مع إخوانهم الذين عاشوا معهم بأمان قروناً طويلة دون اعتداء أي فريق على الآخر.

إن ظاهرة القتل السريع دون جرم واضح في بلاد الرافدين أسوأ ظاهرة عرفناها في التاريخ، فهذا ما يريده المحتلّون الغاشمون.

وكذلك التَّسرُّع في اتِّهام الآخرين بالضلال، تحت لواء مقاومة الابتداع ومناصرة السنة خطأ محض، وهو لا يخدم غير الأعداء، وليس كل بدعة مكفّرة، كما أن السنة مختلف فيها في روايات الأحاديث، وحمل الناس على تأويل مقبول أو ظن حسن أولى من الوصف بالضلال، والضلال رديف الكفر.

ولا يصح أن يكون الإرث السياسي مفرقاً بين الأمة الواحدة المسلمة من سنة أو شيعة، كما لا يصح التسرع في الاتهام بسوء الظن، وعلى كل حال، لا يسأل إنسان عن إنسان، ولا جيل عن جيل، ولا حاضر عن ماض، فهذا ما ينبغي تجنُّبه وإنهاؤه إن أرادوا التقريب الصحيح، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٤]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٧٤/ ٣٨]، ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٥].

وأما الإرث المذهبي الفقهي فلا يقبل بحال من الأحوال أن يكون سبباً للتفرقة، لأنَّ «كلّ ما كان مستنبطاً بالاجتهاد الصحيح ليس منكراً، وإنما هو مقبول» ويجب احترام جميع أئمة الاجتهاد الثقات.

وأمّا الجنوح الطائفي أو العرقي من أصول نسبية فهو أيضاً مرفوض في ميزان العقلاء، ولكن مع الأسف الشديد كان الإرث الطائفي قديماً في لبنان في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، وحديثاً من عام ١٩٧٥ - ١٩٩٠ م نكبة وكارثة خطيرة، حيث قُتِل في هذه الفترات المظلمة آلاف الرجال والنساء، ودمّرت البيوت والمنازل، وشرِّد السكان، وسالت الدماء الزكية في الطرقات والشوارع، وتكدست جثث القتلى في الممرات والساحات.

الخاتمة

إننا اليوم في أشد الحاجة إلى الوفاق وجمع الكلمة والصَّف، ونبذ كل ما يفرق الأمة الإسلامية وكذا العربية، أو يزرع الكراهية والبغضاء والأحقاد بين أبناء الوطن الواحد، والإسلام الجامع، وإنهاء الصراعات العرقية والطائفية والعقدية والقطرية والمذهبية التي تقسم الأمة في أقل

المراتب إلى الاثنية، أو القبلية أو العشائرية، لأن ظاهرة التراكم وإفرازاتها المسمومة شرّ محض وضرر محقق.

يجب العودة إلى (الوسطية والاعتدال) و(الإخاء والتسامح) و(الوحدة والوئام والسلام والأمن الحقيقي) وتوجيه طاقات كل شعب مسلم لمقاومة العدوّ المشترك من الصهاينة وأعوانهم وحلفائهم.

ولا ضير من وجود ظاهرة التعدد بأشكاله المختلفة ما دام العمل الواحد لمصلحة الأمة العامّة هو الأساس، فالإسلام دين الجميع، ومظلّة الجميع، والوحدة الوطنية ضرورة حيويّة لصون حياة الأمة وتقدّمها ونهضتها، لأن المبادئ الأساسية واحدة، والقواعد الأصلية واحدة، والمنهاج الإسلامي في العمل المشترك واحد.

وعلينا أن ندَّخر قوانا وقدراتنا الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية لإقامة بنية وطن واحد قوي، لأن الجميع مهددون بخطر مشترك يعمّ الكلّ.

ولا مانع بعدئذ من وجود تغيّرات واختلافات اجتهادية محضة، لمصلحة الأمة كلها، ولا مانع من تعدد الآراء المذهبية في دائرة الأصول الكبرى، لأن الاجتهاد البحت والمخلص والبعيد عن التعصب مقبول من الجميع دون تقاذف التهم أو التورط في التكفير أو التضليل أو رمي الآخرين بالخيانة وموالاة المستكبرين المعادين.